(١٤) الإسلام وتنظيم النسل

« أعوذ بالله من جهد البلاء . . كثرة العيال مع قلة الشيء »

حديث شريف

رواه النسائى

الإسلام وتنظيم النسل

— كثير من الدول الإسلامية فى عصرنا هذا تشكو من نقص فى الكثافة السكانية . . ومن ذلك دول الخليج العربى والعراق والسودان .

وفى هذه البلاد تكثر الموارد، وتتوافر الأراضى الزراعية الخصبة التى لا تجد من يستثمرها ، وبذلك تعتبر الحاجة إلى زيادة النسل ضرورة ملحة للأمن والدفاع ، ولاستغلال الموارد والثروات ، ولمنع الاعتماد على غير أبناء الأمة فى مختلف المشاريع الزراعية والصناعية .

وبعض هذه الدول مثل دول الخليج يضطر إلى الاعتماد فى تعويض نقص السكان على استجلاب العمالة من دول آسيا من بوذيين وسيخ وهندوس ومسيحيين مما يشكل خطراً على الأمن والأخلاق العامة ، وخاصة إذا ترك الطفل والطفلة المسلمة لرعاية هؤلاء المربيات والخادمات .

— وإلى جانب هذا الظرف الخاص ، فقد يحتاج الأمر فى بلاد أخرى إلى زيادة النسل حتى فى المناطق المزدحمة بالسكان ورغم قلة الموارد ، وذلك إذا كانت فى حالة حرب أو مهددة بها ، من ذلك ما هو حادث فى باكستان وبنجلاديش ، وهما دولتان إسلاميتان يزيد تعدادهما عن

المائة مليون مسلم ، ولكنهما توجهان أعظم تكتل بشرى فى الدنيا على حدودهما سواء فى الصين أو الهند ، كذلك ماحدث فى مصر التى أصيبت مع العـــدو الإسرائيلى بثلاثة نكسات متوالية فى سنة ٤٨، ٥٦، ١٩٦٧ ، وفى بعض هذه النكسات كان الجيش المصرى يكاد يتعرض للتدمير تدميراً كاملا بحيث يظن العدو أنه لن تقوم له قائمة مرة أخرى ، ولكن التفوق العددى للشعب المصرى كان دائما يعوض هـــذه الكوارث ويسد النقص وسرعان ما يبنى جيش جديد ويظهر جيل جديد من المقاتلين .

— وفى ظروف حرب التتار والصليبيين لم يحم الإسلام ويصنه من الزوال غير التفوق العددى للمسلمين . . . فرغم المذابح الرهيبة التى تعرضوا لها فى تلك الحروب حتى كانت مدن كاملة تباد عن آخرها ، فقد عادت الأمة الإسلامية مرة أخرى وانتصرت على أعدائها بل استطاعت أن تحتوى الغزاة وأن تدخلهم فى دينها كما حدث مع التتار .

ومن هنا نقول إننا نؤيد زيادة النســـل فى الأمة الإسلامية بصفة عامة ، وفى ظل دولة الإسلام التى يراعى فيها حسن توزيع الثروة وزيادة موارد الدخـــل إلى جانب حرية التنقل والهجرة داخل الوطن الإسلامى الكبير بحيث تنتقل الأسر المسلمة من مناطق الزحام إلى مواطن الكثافة السكانية القليلة لتعميرها .

وفى عصور ازدهار الإسلام كانت الدولة تفرض راتباً لكل مولود فى الإسلام وكل رضيع وتظل ترعاه حتى يستغنى عن أبويه .

—ولكن قضية تنظيم النسل لها وجه آخر لا يمكن إغفاله ولها ظروف وشروط يجب مراعاتها فى عصرنا الحاضر . . فى المجتمع الزراعى أو البدوى القديم كان الناس يعيشون على الفطرة . . وكانت زيادة النسل فى داخل الأسرة الواحدة تعنى إضافة « يد » جديدة تعمل فى الحقل أو فى رعى الغنم، ومعناها زيادة الخير ودخل الأسرة دون زيادة فى المسئوليات والواجبات ، وكان معدل الأسرة فى تلك العصور بين ستة إلى عشرة أطفال .

— أما فى عصرنا الحاضر عصر التوتر الحضارى ، والعمل الذهنى والدراسات الجامعية الطويلة والمعقدة ، فإن الطفل يظل عالة على أهله منذ مولده حتى تخرجه من الجامعة ، ثم مقدرته على العمل وكسب عيشه . وهو بحاجة إلى رعاية خاصة ومكثفة من أبويه .

— ولا تقتصر رعاية النشأ فى عصرنا الحاضر على الإنفاق المادى وحده . . بحيث يقال إن الأغنياء معفون من مشكلة تنظيم النسل ، ولكن الطفل المعاصر وفى هذا المجتمع المعقد المتطور يحتاج إلى رعاية نفسية ومعنوية وأخلاقية وتربوية إلى جانب الرعاية المادية .

— وقد اثبتت الأبحاث الاجتماعية أن الطفل الذى يعيش فى أسرة كبيرة وبين عدد كبير من الأشقاء والإخوة يصبح عصبياً حاد المزاج كثير الشغب والمشاكل ، وذلك لأنه تعود على أن يعامل بالإهمال وعدم الاستجابة لرغباته . . كما أثبتت الاحصاءات أن الكثير من الأطفال الذين يرتكبون مختلف الجرائم الأخلاقية هم ضحية الحرمان من اهتمام الأبوين وعطفهم وملازمتهم لهم منذ الصغر . . وأن أحد الأسباب الرئيسية لذلك هو كثرة الأطفال .

أضف إلى ذلك كله واقع أمتنا الإسلامية فى عصرنا الحاضر حيث تنعدم رعاية الدولة للطفل .

الإسلام وتنظيم النسل :

والإسلام الذى اهتم بكل قضايا الأسرة المسلمة قد جاء بالتشريعات التى تصلح لكل زمان ومكان ، ولكل بيئة ومجتمع ، وهذا هو رأى الدين فى قضية تحديد النسل : — لقد حبب الإسلام فى النسل وبارك الأولاد ذكوراً وإناث ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « تزاوجوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » وجاءه رجل يسأله فى تزوج امرأة لاتنجب الأطفال فقال له الرسول « تزوجوا الودود الولود » أى أن الزوجة المنجبة خير من العقيم .

(رواه بن ماجه)

ويقول أيضاً « لاتزوجن عجوزاً ولا عاقراً فإنى مكاثر بكم الأمم » .

(رواه الطبرانى) .

ولكن هذه الأحاديث تتعلق بالتشجيع على النسل عامة ولا تتعلق بعددهم ولا بكثرتهم وهى لا تتعارض مع تحديد النسل بعدد معين .

فقضية تحديد النسل قد حسمها الإسلام منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث سمح بالعزل (والعزل) معناه العلمى منع نطفة الرجل من الوصول إلى بويضة الأنثى لإخصابها . وهذا أمر قد سمح به الإسلام وأجازه فقهاء الشرع لأنه لايدخل فيه وأد ولا اضرار بروح .

وقد كان الصحابة يلجأون إلى العزل والقرآن ينزل فلا يمنعهم . وقد جاء فى الصحيحين عن جابر « كنا نعزل على عهد رسول الله فبلغه ذلك فلم ينهنا عنه » وفى صحيح مسلم « كنا نعزل على عهد رسول الله والقرآن ينزل » .

— وكانت طريقة العزل الوحيدة المعروفة فى ذلك العصر أن ينزل الرجل ماءه خارج الرحم وهى طريقة غير مضمونة ولا أكيده فى منع الحمل إذ قد تفلت من الرجل

قطرة تؤدى إلى الحمل خطأ . وقد جاء فى (أصحاب السنن) فى هذا المجال أن رجلا أتى الرسول وقال « يارسول الله : أن لى جارية وأنا أعزل عنها ، وأنى أكره أن تحمل وأنا أريد ما يريد الرجل . . وإن اليهود تحدث أن العزل هو المؤودة الصغرى» فقال صلى الله عليه وسلم «كذبت اليهود ، لو أراد الله أن يخلقه ما استطعت أن تصرفه » ومغزى هذا الحديث أن العزل لا يعتبر وأداً وأن الشرع يبيحه كوسيلة لتحديد النسل ، علماً بأنه طريقة غير أكيدة .

ومن أهم مبررات تحديد النسل فى الإسلام الخوف من كثرة الأطفال وعدم مقدرة الأم على رعايتهم فقد جاء فى صحيح مسلم أن رجلا قال للرسول صلى الله عليه وسلم « يارسول الله . . أنى أعزل عن امرأتى » فقال صلى الله عليه وسلم « ولم تفعل ذلك ؟ » قال أشفق على أولادها » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « لوكان ضاراً لضر فارس والروم » .

ومن الأمور المكروهة فى الإسلام أن تحمل المرأة أثناء فترة الرضاعة وقد سماه الرسول صلى الله عليه وسلم (الغيله) ومعناها اللغوى الهلاك والفساد . . لأنه يهلك صحة الطفل الرضيع بانقطاع حليب الأم وانشغالها عنه بالحمل الجديد . وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم « لاتقتلوا أولادكم سراً فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره » .

(رواه أبو داود)

ومعروف أن مدة الرضاعة فى الشرع حولين (عامين) كاملين . . ومعنى ذلك أن الإسلام يحث على عدم الحمل قبل فوات عامين بعد الولادة السابقة .

وقد تحدث فقهاء المسلمين عن العزل وتحديد النسل فالإمام الغزالى يبين لنا منذ عدة قرون مبررات العزل فى الإسلام فجعلها خمسة مبررات وجعل أولها الخوف على جمال المرأة أن يشوه من كثرة الحمل والولادة . فانظر إلى أى مدى هذا التفتح والواقعية .

وسائل العزل فى العلم الحديث :

لقد توصل العلم الحديث إلى عدة طرق فعالة للعزل ، فمن ذلك اللولب الذى يوضع داخل الرحم فى مكان تعلق البويضة بالجدار فيؤدى بطريقة ميكانيكية إلى منع الحمل وهذه الطريقة الميكانيكية كانت أيضاً معروفة على عهد الرسول حيث كانت القبائل تضع نواة أو حجراً صغيراً فى أرحام نوقها لمنعها من الحمل أثناء السفر الطويل ، وهناك أيضاً الحجاب الحاجز الذى يوضع على مدخل الرحم .

ولكن أحدث الطرق وأسلمها هى حبوب منع الحمل التى وظيفتها الرئيسية منع تكون البويضة وهناك نوع جديد

من هذه الحبوب تزرع الحبة الواحدة منه تحت الجلد فتؤدى إلى منع الحمل خمس سنوات متوالية .

وفى بعض الدول الفقيرة التى تضخمت فيها مشكلة التفجر السكانى مثل الهند والصين يلجئون إلى اجراء عملية جراحية بسيطة للرجال وذلك بربط القنوات التى تمر بها نطفة الرجل . وتحدث هذه العملية عقماً مؤقتاً للرجل ولكنها لا تؤثر على حياته الزوجية الطبيعية .

وفى تلك البلاد لا تحتاج العملية إلى طبيب مختص ولا إلى مستشفى معين ، بل يجريها حلاق الصحة فى دكانه بعد أن يدرب من قبل المختصين وهى لاتكلف كثيراً ، وقد يضطر الرجل إلى هذه الوسيلة إذا كانت المرأة لا تتحمل صحياً وسائل منع الحمل الأخرى أو إذا كانت موارد الأسرة لا تسمح بشراء حبوب منع الحمل . ويجب أن يفهم جيداً أن جميع هذه الوسائل تدخل فى باب العزل المباح شرعاً .

المبررات الطبية لتحديد النسل :

بعد أن ذكرنا المبررات الاجتماعية والاقتصادية التى تدعو إلى تحديد النسل فهناك مبررات طبية تحتم على كل أسرة مسلمة أخذ هذا الموضوع الخطير مأخذ الجد والاهتمام به مهما أتيح لها من رخاء ويسر ، وهذه بعضها .

أولا — الخوف من تشوه النسل :

فقد أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة أن فترة الإخصاب السليم للمرأة هى بين سن العشرين والخامسة والثلاثين . وأن المرأة التى تنجب الأطفال وهى صغيرة جداً وأيضاً التى تنجب وهى كبيرة السن يكون أطفالها عرضة للعيوب الخلقية والوراثية ، أو عيوب فى الشخصية والعقلية وقد لوحظت هذه الظاهرة فى الأسر الكثيرة الإنجاب حيث يكون (آخر العنقود) أقل من مستوى اخوته صحياً أو ذهنياً وقد يكون متخلفاً عقلياً ، ومن العاهات المنتشرة فى هؤلاء الأطفال وجود ثقب فى القلب أو انشقاق فى الشفة والحلق أو عدم نزول الخصية ، وفى الدول المتقدمة إذا تزوجت المرأة بعد سن الخامسة والثلاثين لأى ظرف كان . يوضع حملها تحت الملاحظة الطبية الدقيقة وتعمل لها فحوصات مستمرة خوفاً من ظهور عاهة فى الجنين .

ثانيا — تشوه جسم المرأة وإصابتها بالأمراض :

فالحمل المتكرر يستهلك صحة الأم ويسبب ترهل جسمها ويعرضها للكثير من الأمراض مثل هبوط القلب والسكر والتهاب المرارة وتضخم الكبد والدوالى ، كما أنها حتماً تصاب بالسمنة والترهل وسقوط الرحم أو انقلابه ، وكل هذه العوامل تؤدى بالتالى إلى تأثير غير مباشر على صحة الجنين .

ثالثا — وهنـــاك أمراض فى الأم توجب تحديد النسل منذ البداية :

فمن ذلك إذا كانت مريضة بمرض مزمن مثل السكر ، أو مرض فى القلب مثل روماتزم القلب أو اضطراب النبض ، أو ارتفاع الضغط أو مرض السل فمثل هؤلاء النساء يحسن أن تكتفى بطفل أو اثنين على الأكثر ومن هذه الأسباب ضيق الحوض بحيث لا تلد إلا بعملية القيصرية كما أن هناك حالات يكون الحمل فيها خطيراً على حياة الأم مثل تسمم الحمل المتكرر الذى قد تكون نتيجته إما التضحية بحياة الأم أو حياة الجنين لإنقاذ حياة الأم .

هل تحديد النسل فى صالح الإسلام والمسلمين :

لقد فشلت جميع محاولات تحديد النسل فى العالم الإسلامى رغم ما أنفق عليها من أموال باهظة لسبب رئيسى واحد . : وهو اعتقاد الكثيرين من العوام أن تحديد النسل حرام ! !

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ربه قائلا « أعوذ بالله من جهد البلاء » قالوا وما جهد البلاء يارسول الله قال « كثرة العيال مع قلة الشيء » (رواه النسائى) وهذا ينطبق على أحوال كثير من الأسر المسلمة اليوم .

عندما ظهر الإسلام كان تعداد المسلمين قلة بين سكان

العالم ، ولكن كان الفرد منهم يألف من غيرهم من الشعوب والديانات وذلك بفضل ما توفر لهم من التربية المحمدية والتعاليم القرآنية . وبهذا وحده ، وليس بالكثرة والعدد سادوا الدنيا وهزموا أعتى جيوش العالم ووصلت فتوجهم من الصين حتى الأندلس .

واليوم ، وقد أصبح تعداد المسلمين قرابة الألف مليون مسلم أى قرابة ربع سكان الكرة الأرضية . ولكنهم فى حال من الضعف والتفكك بحيث أصبحت بلادهم محتلة وجيوشهم مقهورة وخيرات بلادهم منهوبة وأصبح ينطبق عليهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها » قالوا « أو من قلة فينا يومئذ يارسول الله ؟ ! ! قال « كلا بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل » .

(رواه أبو داود وأحمد)

وختاماً نقول : ان القوة التى يتطلبها الإسلام لأبنائه لا تكون بالكم والعدد وإنما بالكيف والنوعية . وأن الإسلام لا يريد لأبنائه أن يكونوا غثاء كغثاء السيل . والشريعة الإسلامية إذ تتطلب الكثرة إنما تطلبها قوية لا هزيلة . وعندما تصبح الكثرة على حساب الجودة فإن الجودة تصبح أصلح للمسلمين من الكثرة وإذا قلنا أن كل اصلاح يبدأ بالأسرة

أولا . كان لنا أن نقول أن أحد واجبات الأسرة المسلمة فى العصر الحديث هو تنظيم النسل بما أذن الله ورسوله به من وسائل لكى تتوفر للأبوين المسلمين الطاقة للعناية بأولادهم ولإنجاب جيل جديد يربونه على نهج رسول الله وهدى القرآن .

جيل يكون الواحد فيه بألف من أعدائهم
ولا يكون فيه الألف بواحد .